الحسناء

الجزء السادس — المجلد الثاني

بيروت شهر كانون الاول سنة ١٩١٠

فلورنس نيتنكال

ممرضة عظيمة . عزّزت فنّ التمريض في السلم وفي الحرب وعظّمت مقامه في عيون الناس . جاهدت بكلّ قواها في هذا السبيل ولم تبال بالتعب او تخشى العدوى . خدمت الانسانية كملاك سموي وامتازت بتخفيف الالام ومواساة المرضى

ومع كل ذلك كانت من المدافعات عن حقوق السيدات ومن المطالبات بحق التصويت في الانتخابات

وهي شريفة انكليزية . ولدت سنة ١٨٢٠ في احدى مدن ايطاليا ودعيت باسمها فلورنس . وكان ابوها وليم ادوارد شور غنياً عظيماً ورث امواله عن السر بطرس نيتنكال وتسمى باسمه . وكانت اسرتها مشهورة بالفضل والاحسان

فتربت فلورنس على الفضائل . وتعلمت ما وافق استعدادها حتى استطاعت ان تفيد العالم . وكان تعليم البنات في بلادها مقتصراً فقط على المبادىء الاولية دون العلوم العالية ولكن والدها قد خالف هذه العادة واعتنى بتعليمها غاية الاعتناء

وكان فؤاد هذه الفتاة مشغوفاً بحب الخير مفطوراً على الاحسان ميالاً

خصوصاً الى مواساة المرضى بما فيه من الرأفة والحنان . ولذلك لم تزاول فن التمريض تحصيلاً للمال او اشتغالاً لاوقات الفراغ بل مجاراةً لميل طبيعي فيها دعمته التربية وعززه التعليم

فكانت في حداثتها تمرّض اللعب كانها بشر فتجعل نفسها بمثابة الطبيب والممرضة معاً فتمثل عدّ النبض وفحص الصدر وضمد الجرح وسقي الدواء. ثم تدرجت الى تمريض الحيوان . وبلغ من كثرة حنوها ولطفها ان صارت الحيوانات والطيور الداجنة تأنس بها وتدنو منها باطمئنان

عرفت مرة ان فلاحاً من مزارعي ابيها عازم على قتل كلبه لجرح اصابه ولا امل له بشفائه منه فتأثرت وبادرت حالاً الى الفلاح والدمع يتلألأ في عينيها وسالته بلطفها المعهود ان يتمهل لتمرّض له الكلب لعله يشفى وبالنظر لبعد بيته عن منزلها كلفت قسيس كنيستها ان يرافقها اليه وهناك غسلت جرح المريض وضمدته . وعاودت عملها مرات الى ان شفي مريضها . والفضل في شفائه لها

ولما رأت من نفسها كل هذا الميل للتمريض وتاكدت شدة ما يقاسيه الاعلاء من الاوجاع عزمت على تعلم هذا الفن واتقانه جيداً توصلاً لغايتها النبيلة تخفيفاً لالام المرضى وتوفيراً لمسرات الناس

فدرست ما يلزم لذلك حتى اللغتين اليونانية واللاتينية . وذهبت الى المانيا وفرنسا تتعمق في الفن علماً وعملاً . وساعدها الميل الى الموسيقى والاشغال اليدوية والمهارة فيها على الرشاقة والخفة في تضميد الجراح حتى ضرب بها المثل

ولولا قوة عظيمة في نفسها لما استطاعت الثبات في التمريض والنبوغ بالمواساة . لان هذا الفن كان محتقراً في عصرها ولم تكن تقدم عليه الامن

لا تستطيع الارتزاق من سواه . وذلك فضلاً عن رفعة مقامها بين قومها مع جمالها وغناها مما يبعث غالباً على الرفاهة والكسل . بيد ان النفوس العظيمة لا يثنيها عن عزمها شيء من هذا ولا يغرها مال او جمال

وهكذا لم تعبأ فلورنس بآراء معاصريها بل شرعت تمرّض الفقراء دون مبالاة . فعهدت اليها الحكومة امر مستشفاها فنظمت شؤونه مجانًا لوجه الله ورتبته احسن ترتيب وكثيرًا ما كانت تنفق عليه من مالها لتحسين احواله

ولما انتشبت حرب القرم بين الروس والاتراك وساعدت انكلترا وفرنسا تركيا على روسيا . اخذت مس نيتنكال تتابع استطلاع اخبار الحرب وتهتم خصوصاً بها اختص منها بالجرحى فساءها اختلال احوالهم واثرت بها قلة العناية بهم وعدم تمريضهم بما يرجى منه شفاؤهم . فعزمت على الذهاب بنفسها الى ميادين القتال لتعوّض باطفها عن شراسة المتحاربين

وفيما هي تهمّ بذلك طلبت اليها الحكومة ذات الشيء تواردًا بالخواطر وفوضتها بان تصحب معها عددًا وافرًا من الممرضات تتولى ادارتهن كما تشاء وان تهيء جميع اللوازم على نفقة وزارة الحربية . ومما كتبته لها الوزارة انها لم تجد سواها اهلاً لهذا العمل الخطير ولذلك تسألها (باستعطاف) ان تمد اليها يد المساعدة وتقبل ادارة المستشفى ولها السلطة المطلقة في تنفيذ ما تراه موافقًا للنجاح

فبادرت حالاً الى انتخاب ممرضات مناسبات و بالجهد استطاعت جمع اكثر من ثلاثين . ولما اعدّت كل احتياجاتها سافرت واياهن الى ساحات الحرب لمداواة الجرحى . والدهشة مستولية على الناس من هذا العمل شريفة غنية . جميلة صبية ربيبة النعم اليفة الرخاء تغادر القصر بكل

ارتياح الى حيث تضحى الاجساد وتباح الارواح . فتقتحم اما كن القتال ولا تخاف الموت او تهتم بالتعب ؟ ان في هذا الاقدام وهـذه الجرأة باعثاً كبيراً للعجب

ولما ضاق مستشفاها عن بقية الجرحى اضطرت الى استخدام الاكواخ واعتاضت عن الاسرّة بالارض ولكنها كانت تجهد نفسها كثيراً في تخفيف الام المصابين حتى رزحت تحت اثقال التعب والضعف واصابتها حمى خبيثة كادت تذهب بها

وقد بلغت اخبار مآثرها اسماع مواطنيها فامدّوها بالمال وترنموا بمدائحها على اختلاف طبقاتهم ونظم شعراؤهم فيها القصائد الحسان وسموها الملاك المفرح ومعينة الانسانية وما اشبه من احسن الاسماء

ولما عادت بعد انتهاء الحرب اهدى اليها السلطان عبد المجيد اسوارا مرصعاً بالالماس وقدمت لها الملكة فكتوريا حلية ثمينة ثم منحتها وسام الصليب. واكتتبت الامة الانكليزية بمبلغ خمسين الف ليرة لتشييد اثر يخلد ذكرها افتقوه على بناء مستشفى باسمها في لندن نصبوا تمثالاً لهـا فيه يمثلها وهي حاملة المصباح

فاقامت في هذا المستشفى وجعلت قسماً منه لتعليم التمريض . واسست جمعية الصليب الاحمر الانكليزية لمداواة جرحى الحروب وانشأت المستشفيات في لسبون واستراليا والهند وفي كثير من بلاد الانكليز

وما اكتفت بذلك بل الفت عدة كتب في فنّ التمريض زادتها شهرةً وفضلاً . وكانت الحكومة الانكليزية تعتمد عليها في هذا الشأن دون سواها. ولما استعرت نيران الحرب الاهلية في اميركا كان الاميركيون يستشيرونها في ما يلزم لتمريض جرحاهم. وعند ما تحارب الالمان والفرنسيس ساعدت جرحى تلك

الحرب مساعدة يذكرونها بالشكر والاجلال فقد كانت ثقة في فن التمريض يعوّل على ارائها فيه وتتخذ حجة لا يختلف فيها

وقد عرف الانكليز قيمة هذه الممرّضة فكرموها غاية الاكرام وعدا عن المستشفى الذي شيدوه باسمها والتمثال الذي نصبوه لها فيه فقد منحوها عضوية لندن وهذا غاية ما يطمعون بنيله من القاب الشرف . وانعم عليها الملك ادوارد بنشان مار يوحنا ووسام الاستحقاق وهي اول من نال هذه الوسام من الجنس اللطيف بل الوحيدة التي نالته للآن وهو من حين انشائه الى العام الماضي لم ينله الا تسعة عشر شخصاً فقط منهم ثمان لوردات . ويروى انه لما قدمت لها البراءة بعضوية لندن في علبة ذهبية طلبت ان تبدل العلبة بغيرها من علب الخشب وان يوزع ثمن علبة الذهب وهو مئة ليرة على الاعمال الخيرية

واحتفلوا بعيد مولدها في هذا العام احتفالاً جميلاً لتجاوزها التسعين من عمرها كان الملك جورج من مهنئيها فيه وكانت رسالته بتهنئتها اول رسالة تهنئة كتبها بعد ارتقائه العرش اثر وفاة ابيه

على انها لم تعش بعد عيدها الاخير اكثر من ثلاثة اشهر وبضعة ايام اذ توفيت في ٢٠ آب من هذا العام وكان لوفاتها رنة اسف شديدة في قلوب الناس رددتها جميع الامم فاحتفي بتأتها احتفاء عظيماً وصلي عليها في كنيسة ماربطرس باحتفال شائق حضره ملك وملكة انكلترا واعضاء الاسرة المالكة ونحو الف ممرضة وكان بعزمهم ان يدفنوها في وستمنستر مدفن عظماء الانكليز لولا وصيتها بان تدفن مع والديها في غير هذا المكان وكان في جنازتها نحواً من مئة اكليل فاخر من الزهر منها اكليل ارسلته الملكة الكسندرا كتبت عليه ما معناه — تذكار عرفان الجميل الى اكبر محسنة للانسانية المتألمة . مؤسسة فن تمريض جرحى الحرب ومعززته بيسالتها